

تكملة علو همة النساء

وداعًا أم السعد:

□ قال الشيخ الدكتور محمد في محاضرة تحت عنوان وداعًا أم السعد: «ممن رفعه القرآن الكريم – في زماننا- هذه الشيخة المقرئة المتقنة الحافظة المُعَمَّرَة، الشيخة التي فقدتها الأمة الإسلامية ولم يحسَ بِذلكَ أحدٌ إلَّا النذر القليل؛ وهي الشيخة/ أم السعد – رحمها الله تعالى، وغفر الله لها-، فموقف الإسلام من تعظيم العلم وأهلهِ، وخاصةً: «أهل القرآن الكريم» معروفٌ جدًّا، بل مكانة المرأة في خدمة العلم الشريف مكانة متميزةٌ جدًّا، فلا شك أن ممن يتربع على أعلى مقامٍ علمي في الإسلام – بالنسبة للنساء – أم المؤمنين الصديقة بنت الصدِّيق المبرئة من فوق سبع سموات عائشة ﵂، التي فيها الإمام الحافظ الذهبي ﵀ كلمة لها وزنها: «ولا أعلم في أمةِ محمدٍ ﷺ، بل ولا في النساءِ مطلقًا امرأةً أعلمَ منها!» اهـ.

إعلامُ النبيل بصيانة النساء للدين:

□ يقول حافظ إبراهيم:

صنعْتُنَّ ما يُعْيي الرجال صنيعُهُ   فـزدْتُنَّ في الخيراتِ والبركاتِ

أدت النساء في حمل العلم الشريف: القرآن أو السنة دورًا عظيمًا جدًّا، وحقيقة المقام لا يسع للتفصيل ولكن نشير إلى إشارات النساء العالمات على مسيرة العلم الشرعي في الإسلام، فالإمام محمد بن سعد ﵀ يَعقِدُ جُزءًا في كتابهِ المَاتع الموسوم بـ : «كتاب الطبقات الكبير» لراويات الحديثِ من النساءِ؛ أتى فيهِ على نيفٍ وسبعمئة امرأة روينَّ عن رسول الله

ﷺ أو عن صحابتهِ -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-، وروى عنهم أيضًا أعلام الدين وأئمة المصنفين، وكذا فعل غيره من الأئمةِ في تصانيفهم أفردوا مواضعِ معينة لذكرِ الراويات من النساء، بل هذا علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه يتلق الحديث عن مولاة لرسول الله ﷺ كانت تقوم على خدمتهِ، وهي ميمونة بنت سعد رضي الله عنها يتلقى عنها الحديث النبوي وهو من هو في العلم!!، فكيف كان حال من هو دون علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟، وأيضًا الحافظ الذهبي الذي ألف كتاب: «ميزان الاعتدال في نقد أحوال الرجال» خرج في هذا الكتاب عدة آلاف متهم من المحدثين اتهموا وضعفوا، ثم قال الذهبي رحمه الله وهو من أئمة الاستقراء في علم الحديث وعلم الرجال: «وما علمتُ من النساء.. من اتهمت، ولا من تركوها!»، وفي ترجمة حافظ الأمة ابن عساكر رحمه الله أنه: كان له من شيوخهِ وأساتذتهِ بضعٌ وثمانونَ من النساء. اهـ.

□ وأيضًا الإمام أبي مسلم الفراهيدي رحمه الله المحدث: «يكتب عن سبعين امرأة، بل كان هناك أستاذات ومدرسات وشيخات لأمثال الإمام الشافعي، والإمام محمد بن إسماعيل البخاري، والإمام بن خلكان، والإمام ابن حبان، وللإمام ابن القيم.. ولكثير من أئمة السلف، وهذا شيء معروف في علم التراجم..

لئنْ كان النساءُ كما ذكرنا ... لفُضِّلتِ النساءُ على الرجالِ

الكَنزُ المفقود

نقولُ أن هناك كثيرًا من الكنوز لا نُحِسُ بها -للأسف- إلَّا بعد أن نفقدها، ففي ليلة السابع عشر من رمضان للعام الهجري ١٤٢٧هـ،

الموافق بالميلادي ٩/ ١٠/ ٢٠٠٦م، فقدت الأمة الإسلامية أشهر امرأة في – عالم قراءات القرآن الكريم- العالم؛ لأنها الوحيد التي تعرف على مستوى العالم كله من النساء بتخصصها وإتقانها للقراءات العشر، وظلَّت طوال نصف قرن – بل حولي ٦٠ عامًا- تمنح إجازاتها في القراءات العشر للنساء والرجال؛ كبار وصغار، وقد تجاوزت الثمانين عامًا.

لها نصيبٌ من إسمِها!

ولدت الشيخة الحافظة القارئة/ أم السعد محمد علي نجم – رحمها الله تعالى- في ١١/ ٧/ ١٩٢٥م وكانت بصيرة بقلبها، وتوفيت العالمة الضريرة – رحمها الله- وقد تجاوزت الثمَانين عامًا، وكانت الشيخة أم السعد –رحمها الله تعالى- اسمًا على مسمى، كمَا تنبأ لها بذلك شخص له تأثيرٌ عظيمٌ في حياتها؛ وهو ناظر المدرسة التي كانت تدرس فيها.

وسنذكر شيئًا من ترجمة هذه العالمة المتقنة المقرئة الحافظة –رحمها الله تعالى- تحفيزًا لكل من يقرأ هذه الترجمة، كي يستغفروا الله ﷻ لها، وأداءًا لبعض الدَين لهذه المقرئة الجليلة على أبنائها وتلاميذها، وهم كثُرٌ في مدينة الإسكندرية بالذات؛ عامة القراء في الإسكندرية تلاميذتها وقرؤوا عليها – رحمها الله تعالى-، أو على الآخذين منها.

الخصيصة العجيبة لأم السعد – رحمها الله تعالى – أنها أشهر امرأة في العالم تجمع القراءات العشر، وتجيز المقرئين بالقراءات.

أم السعد وعلو الإسناد:

هل الشيخة أم السعد أعلى إسناد في العالم؟ نجيب: بأن المسألة فيها نوع من التفصيل.

ونقول: بأن أعلى إسناد فيمَا يعلم – من طريق الدرة- فضيلة الشيخ المقريء/ عبد الباسط هاشم –حفظه الله تعالى-، وأيضًا في نفس درجتهِ فضيلة الشيخ المقريء الجليل/ محمد عبد الحميد عبد الله –حفظه الله تعالى- وهو كبير قراء مدينة الإسكندرية، أما من طريق الشاطبية فأعلى أهل العصر إسنادًا.. هو فضيلة الشيخ المقريء/ بكري بن عبد المجيد الطرابيشي –حفظه الله تعالى- وهو أعلى القراء سندًا في الدنيا.. والله تعالى أعلم.

لكن الشيخة أم السعد – رحمها الله- في درجة المشايخ المذكورة في العشر الصغرى، في درجة الشيخ/ محمد عبد الحميد، والشيخ/ عبدالباسط هاشم.. والله تعالى أعلم.

فهي بينها وبين النبي ﷺ براوية حفص عن عاصم من طريق الشاطبية سبعةٌ وعشرون راويًا[(١)]، سلسلة تبدأ بها وتنتهي إلى النبي ﷺ

---

(١) هذه سلسلة إسناد المقرئة الشيخة أم السعد الإسكندرانية –رحمها الله تعالى- ، تلقت الشيخة المسندة المعمَّرة المقرئة أم السعد الإسكندرانية القراءات العشر من الشاطبية والدرة عن: (١) الشيخة نفيسة بنت أبو العلا وهي عن، (٢) عبد العزيز علي كحيل وهو قرأ على، (٣) عبد الله الدسوقي وهو عن، (٤) شيخه علي الحدادي، (٥) شيخ القراء بالديار المصرية الشيخ إبراهيم العبيدي الذي قرأ على، (٦) شيخ الجامع الأزهر محمد بن حسن السمنودي المنير الذي قرأ على على (٧) علي الرميلي الذي قرأ على (٨) شيخ قراء زمانه محمد بن قاسم البقري الذي قرأ على، (٩) شيخ قراء مصر عبد الرحمن ابن شحاذة اليمني الذي قرأ على، (١٠) عليّ بن غانم المقدسي الذي قرأ على (١١) محمد بن إبراهيم السمديسي الذي قرأ على، (١٢) الشهاب أحمد بن أسد الأميوطي الذي قرأ على (١٣) الإمام الحافظ حجة القراء محمد بن محمد بن محمد بن =

الذي تلقى القرآن عن جبريل عليه السلام عن رب العزة جلَّ شأنه، فهل هناك نسب أشرف من هذا النسب العلمي الجليل؟!.

رحلة التحدي:

الشيخة أم السعد – رحمها الله تعالى- عُمِّرَتْ، تقريبًا تجاوزت الثمَانين عامًا، بعد ما أتمت حفظ القرآن في الخامسة عشرة من عمرها: ذهبت إلى شيختها الشيخة/ نفيسة بنت أبو العلا – رحمها الله تعالى- شيخة أهل زمانها (كمَا توصف بذلك)، فذهبت إليها الشيخة لتطلب منها تعلم القراءات العشر، فاشترطت عليها – الشيخة نُفَيسة- شرطًا عجيبًا؛ وهو: أن تعلمها، لكن ألا تتزوج أبدًا، فقد كانت ترفض بشدة

الجزري الشافعي مؤلف النشر والطيبة وغيرهما من المؤلفات المباركة وهو قد قرأ علىٰ، (١٤) عبد الرحمن ابن أحمد البغدادي الذي قرأ علىٰ، (١٥) شيخ القراء بمصر محمد بن أحمل الصائغ الذي قرأ علىٰ، (١٦) علي بن شجاع الكمال الضرير صهر الإمام الشاطبي الذي قرأ علىٰ، (١٧) الإمام أبي القاسم الشاطبي الذي قرأ علىٰ، (١٨) الإمام علي بن محمد بن هذيل البلنسي الذي قرأ علىٰ (١٩) أبي داود سليمان بن نجاح الذي قرأ علىٰ (٢٠) الإمام أبي عمرو الداني الذي قرأ برواية حفص علىٰ (٢١) طاهر بن غلبون قال: قرأت علىٰ (٢٢) عليّ بن محمد الهاشمي قال: قرأت علىٰ (٢٣) أحمد بن سهل الأشناني قال: قرأت علىٰ (٢٤) أبي محمد عُبيد بن الصباح قال: قرأت علىٰ (٢٥) حفص بن سليمان الذي قرأ علىٰ، (٢٦) عاصم بن بهدلة بن أبي النجود الذي قرأ علىٰ، (٢٧) أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي الذي أخذ عن، (٢٨) عثمان وعلي وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، وأخذ هؤلاء رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ الذي تلقىٰ القرآن عن جبريل عليه السلام عن رب العزة جل شأنه.

تعليم البنات؛ لأنهن بعد الجهد الجهيد في تعليمهن، يتزوجن وينشغلن فيهملن القرآن الكريم، فكانت ترى أنهن لسن أهلن لذلك؛ لذلك كانت تزهد في تعليمهن!، قبلت الشيخة أم السعد -رحمها الله تعالى- هذا الشرط من شيختها التي كانت تعرف بصرامتها وقسوتها على السيدات ككل اللواتي لا يصلحن - في رأيها -لهذه المهمة الشريفة!، وممَا شجعها على ذلك أن الشيخة نفيسة - رحمها الله تعالى- نفسها لم تتزوج رغم كثرةٍ من طلبوها للزواج من الأكابر، وماتت وهي بكرٌ في الثمَانين، انقطاعًا للقرآن الكريم....!.

حديثٌ أجري مع الشيخة قبل وفاتها:

□ تقول الشيخة أم السعد في حديث مع الأخ حسام تمَام - وفقه الله-: «من فضل ربي أن كل من نال إجازة في القرآن في مدينة الإسكندرية بأي قراءة إما أن يكون قد حصل عليها مني مباشرة - أي: مناولةً- أو من أحد الذين منحتهم إجازة.

وتؤكد اعتزازها بأنها السيدة الوحيدة - في حدود علمها- التي يُسافر إليها القراء وحفظة القرآن من أجل الحصول علي: «الإجازة» في القراءات العشرة.

أكثر ما كان يسعدها - رحمها الله تعالى - أن مئات الإجازات التي منحتها في القراءات العشرة يبدأ سندها «تسلسل الحفاظ» باسمها، ثم اسم شيختها «نفيسة أبو العلا» ليمتد عبر مئات الحفاظ وعلمَاء القراءات بمن فيهم القراء العشر: «عاصم، نافع، حمزة، ابن كثير، الكسائي، ابن عامر، أبو جعفر، يعقوب، خلف» إلى أن ينتهي بالرسول المصطفى محمد ﷺ.

من تواضع لله رفعه:

كانت تعيش الشيخة أم السعد - رحمها الله تعالى- في أعرق حي في مدينة الإسكندرية، وهو حي «بحري» في حارة الشمرلي، وما إن دخلت هذا الحي وسألت عن الشيخة، يتسابق الجميع - الكبير والصغير- ليدلوك عن شقتها المتواضعة؛ لأنها كانت هناك: «أشهر من نارٍ على علم»..

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يرفع نفسه ... إلى طبقات الجو وهووضيعُ

أفواج صغيرة تدخل وتخرج ممن يحلمون بختم القرآن الكريم من مختلف الأعمَار ومن الجنسين، ومن مختلف الطبقات الاجتمَاعية؛ الفقير والغني، الطبيب، والمهندس، والمدرس، والمليونير، وأستاذ الجامعة، وطلاب الثانوية، رجالٌ كانوا أو نساء.. من كل طبقات المجتمع، يتوافدون على بيتها، ومن قبل كانوا يتعلمون على يديها ويد زوجها فضيلة الشيخ المقريء/ محمد فريد النعمَان - رحمه الله تعالى- شيخ قراء ثغر الإسكندرية في زمانهِ.

تبدأ دروس النساء والبنات من الثامنة صباحًا وتمتد إلى الثانية ظهرًا، ثم تبدأ دروس الرجال حتى الثامنة مساءًا لا يقطعها سوى أداء الصلوات، وتناول الوجبات الخفيفة لتتمكن الشيخة من الاستمرار.

قصة العمى وخرافات الريف:

من وجد الله فماذا فقد؟!.. ومن فقد الله فماذا وجد؟!

متى صحّ مِنكَ الودُّ فالكل هَيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ

نشأت أم السعد ابنةً لأسرةٍ فقيرة انحدرت من قرية البندارية إحدى قرى مدينة المنوفية «شمَال القاهرة».

داهم المرض عينيها ولم تتجاوز عامها الأول، ولم يكن لدى أهلها القدرة – وربمَا أيضًا الوعي- لعلاجها لدى الأطباء فلجؤوا إلى الكحل والزيوت وغيرها من صفات العلاج الشعبي التي أودت – في النهاية- ببصرها مثلما حدث مع آلاف الأطفال آنذاك.

والشيخة أم السعد - رحمها الله تعالى- لها ذكريات أليمة، وقد أخبرتني ببعضها ومن ذلك مثلًا: هذا الموقف الذي أثر في حياتها كلها، عندما كانت في المدرسة.. في أوائل السنوات، استأذن المدرس أن يخرج من الفصل لدقائق معدودة، ووقتها حذر التلميذات في الفصل على أن لا يصدروا أيةِ صوت، فقبل خروجهِ سمعت أم السعد – رحمها الله- أن التلميذات أحدثن شيئًا من الضوضاء، فحسبت أن المدرس خرج بالفعل، فقامت وقفزت على المكتب وقالت: هيه هيه هيه – تعبيرًا بالفرح وقت ما كانت طفلة-، وصاحت بهذه التعبيرات باعتبار أن المدرس خارج الفصل، فضحكت التلميذات!، وإذ بالمدرس يضربها ويقول لها: إن لم تكوني عمياء.. فماذا تصنعي؟ فضربها المدرس، وفي الحقيقة أنها ظلت تبكي، واستغربت جدًّا وصفها بالعمى، وظلت تبكي طوال اليوم، وقالت: لمَا علمتُ بمصيبتي؛ يبدو أنها نتيجة إهمال الناس لها من حولها لم تكن تعرف في يومٍ من الأيام أنها عميت، أو أن الأولاد بتولد بنظير صحيح، ثم بعد ذلك بيطرأ عليهم العمى، فهي لم تكن تعرف حقيقة هذا الأمر فصدمتها كلمة هذا المدرس، وظلت تبكي طوال اليوم على المصيبة التي اكتشفتها، وعَلِمَ ناظر المدرسة – رحمه الله تعالى-

بالواقعة فقام بفصل المدرس من المدرسة.

ناظر المدرسة ونشأة أم السعد:

□ تقول أم السعد: «كنت الوحيدة بالمدرسة الضريرة، فكان ناظر المدرسة يتلطف معي ويقول لي: «يا أم السعد.. أنتِ بنت ممتازة، لذلك لا تحضري دفاتر، سوف تعطيك المدرسة من دفاترها»، وبدأت الروح تعود إلى الجسد من جديد، لمَا فهمته أم السعد من الناظر - رحمه الله تعالى- أنها ستعامل معاملة متميزة وسط الطالبات في المدرسة لأنها كانت ذكيةٌ جدًّا، وهذا دور الرجل التربوي الناجح؛ فنحسبه أنه هو السبب في إخراج مثل هذه المرأة إلى الدنيا كلها، وكان يعطيها كراسات السنة المَاضية، وتقول: كنتُ أشعر بسعادة لتمييزهِ لي على أقراني بتلك الدفاتر، وقال لي ذات يوم -هذا الكلام مباشرةً من الشيخة للدكتور/ المقدم-: «يا أم السعد ستكونين أم السعد حقيقة، انتظري بعد المدرسة سوف تحفظين كتاب الله تبارك وتعالى أنتِ الوحيدة لأنكِ أحسن بنت، تقول: سعدت بكلمَاتهِ كثيرًا، وكان يجلس معي يوميًا بعد الدراسة يحفظني ما يتيسر له فإذا أتممتُ رُبعًا كافئني ببعض الحلوى من: «المعمول وكعب الغزال»، وكان لا يتخلف عن الجلوس معي بعد انتهاء اليوم الدراسيِّ إلَّا لعذرٍ قاهر كـ: «حضور اجتمَاع، أو الذهاب للمنطقةِ التعليمية»، وكان إذا تخلَّف أمر بعض المدرسات بالجلوسِ معي حتى لا أتأخر عن وردي اليوميّ - فجزاه الله عني خيرًا-.

وكان تحفيظُ الناظر لي بمثابةِ بداية لم أحفظ فيها إلَّا أجزاءً قليلة وفرقت بيننا الأيام.

أم السعد: الوقار وخفة الظل:

الشيخةُ أمُّ السعد – رحمها الله تعالى- كانت خفيفةُ الظل جدًّا مع وقارها الشديد لكنها كانت مرحة، وإذا جالستها تحسُّ وكأنَّ الملائكة تزاحمك في المكان؛ وهذا شعورٌ غريب يحسه كل من يجلس إليها – رحمها الله تعالى- لأن حياتها كلها ليل نهار في القرآن لا غير على الإطلاق.

تعبوا قليلًا واستراحوا دائمًا ... يا عِزَّة التوفيقَ للإنسانِ

لطائف الحكايات:

من طرئف الشيخة – رحمها الله تعالى- التي كانت تحكيها كثيرًا:

كانت التلميذات الصغار اللواتي معها في الفصل يتحاكمن إليها في «الشَعرِ الناعم المميز» وكانت – رحمها الله- متميزةُ في هذا الموضوع فكن البنات يتحاكمن إليها عند الاختلاف، في ذاتِ مرة من المرات حصل مثل هذا، فكانت تمسك بالشعر وتقول: هذا ناعم، هذا خشن.. وهذا كذا، دخلت المدرسةُ وهنَّ متزاحمات أمامها حتى تحكم هي على شعورهن، فالمدرسة تظاهرت بأنها تلميذة واندسَّت في وسط التلميذات ومدت لها شعرها، وقالت لها: ما رأيك في شعري، فقالت الشيخة أم السعد – رحمها الله تعالى- بعد ما لمسته: أو هذا شعر! هذه فروة خروف!؛ فضحكت المعلمة وضحكت البنات، فقالت لها المعلمة: أو هكذا يا أم السعد، فقالت: لا والله يا أستاذة.. هو جميل وناعم ومحتاج قليل من الزيت – كي ينعم–.

من حُرِمَ الرفق حُرِمَ الخير كلَّه!:

□ كانت الشيخة أم السعد – رحمها الله تعالى- في غاية الرفق بمن

تُحفظُهن بالذات من الأخوات حتى لفت هذا بعض تلميذاتها، وقالت لها بعض تلميذاتها: ما رأيتُ شيخةً في لطفكِ ورحمتكِ ورأفتكِ بنَّا ونحن نقرأ عليك القرآن، فقالت الشيخة – رحمها الله تعالى- لقد عانيتُ وذقتُ الأمرَّين في حِفظي على يدِّ المشايخ؛ فكانوا يضربوننا بالخيزران على رؤوسنا، ويَغلظون في القول وكنتُ أرتاعُ منهم، لذلك أنا أرحمُ من يحفظُ معي..

عليكِ بأمرِ الرفقِ فهو محببُ وكوني لا لاهيةً ذاكرةً مخبتة
وكوني طيبةً كالنحلِ يخرجُ طيبًا وتخرجُ شهدًا صافيًا ومعسلة

□ وكان من رفقها – رحمها الله- بأن تكثر من نصيحة تلاميذها وتلميذاتها.. بأن يُعجِّلن حفظ القرآن الكريم حتى لا تفوتهم الفرصة؛ وكأنها كانت تشير إلى اختطافِ الموت إياها، فكانت تنصح بعدم التخلُّف عن الحضور ليختم التلميذ أو التلميذة بسرعة، وكانت تستدل بقصتها مع شيختها المقرئة/ بنفيسة بنت أبي العلا – رحمها الله تعالى-.

□ وفي هذا الباب يقول الشيخ عائض القرني:

أيا داعيا لله هاك وصيتي عليك بتقوى الله يا صاح أولًا
وكن طلبًا للعلم في كل ساعةً حريصًا عليه مجملًا وفصلًا

□ تقول أمُّ السعد – رحمها الله-: «قالت لي الشيخة نفيسة – رحمها الله- وانا صغيرة وذكية: يا أمَّ السعد سوف أحُول بيتي – إن شاء الله- إلى دارٍ لتحفيظ القرآن الكريم، ولسوف أجعلكِ المسؤولة عنها في حياتي وبعد مماتي، وشرعت شيختها نفيسة في أخذ خطواتٍ عملية في سبيل تحقيق ذلك، وكان من المفروض أن أتسلَّم الدارُ يوم السبت، لكن قالت

لي الشيخة نفيسة - رحمها الله تعالى-: يوم الخميس «وهو الفائت عن السبت» أن أخي مريض وهو بيحتضر، فأخشى أن يتأخر استلامُكِ للدار بسببِ ذلك، ويوم الجمعة جاءها طارقٌ بالليل -أتى الشيخة أم السعد- تقول أمَّ السعد: «فمَا شككتُ أنه أخو الشيخة نفيسة قد مات، فلمَّا تبينَّا الأمر إذا بالشيخة نفيسة هي التي ماتت، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله».

الطفولة القرآنية:

وكعادتِ أهل الريف مع العُميان نذرها أهلها لخدمة القرآن الكريم حتى حفظت القرآن الكريم في مدرسة: «حسن صبحي» بالإسكندرية في الخامسةَ عشرةَ من عمرها، وأتمت هذه المهمة الشريفة وحصلت من شيختها نفيسة - رحمها الله- على إجازاتٍ في القراءاتِ العشر وهي في الثالثةِ والعشرينَ من عمرها - رحمها الله-، وكانت الوحيدة في عصرها من النساء في مصر من يحمل هذا العلم، وكانت تفتخرُ بذلك، وكان بيتها لا يكاد يُغلق من كثرةِ الوفود التي تصل إليها لتأخذ علم القراءات عنها من كل طبقات المجتمع: أساتذة جامعات، أطباء، مهندسين، مدرسون، رجال أعمال، طلاب علم، نساء، رجال، شباب. وكانت تبدأ الدروس من الثامنة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر وهذه كانت فترة النساء، وكانت تبدأ فترة الرجال من الثانية بعد الظهر إلى الثامنة مساءًا.

ستون عامًا من حفظ القرآن وقراءته ومدارسته ومراجعته لم تنسى منه حرفًا لأنها لم تكن تعرف علمًا آخر غير القرآن؛ فلا تجد عندها مثلًا: علم الفقه، ولا علم اللغة، ولا علم الحديث.. ولا أية شيء؛ لأنها لم تتعلم أي علم آخر سوى علم القراءات؛ وكانت فيه متقنةً جدًّا، فمَا تعرف إلَّا علم



القرآن ومتونه في التجويد والقراءات، لم ينشغل عقلها ولا قلبها بشيءٍ إلَّا القرآن الكريم.

□ تقول الشيخة أم السعد – رحمها الله – في حديثها مع الأخ/ حسام تمَام: «ستون عامًا من حفظ القرآن وقراءته ومراجعته جعلتني لا أنسى فيه شيئًا، فأنا أتذكرُ كل آيةٍ وأعرف سورتها وجزءها وما تتشابه فيه مع غيرها، وكيفية قراءتها بكل القراءات.

أشعر أنني أحفظ القرآن كاسمي تمَامًا، لا أتخيل أن أنسى منه حرفًا أو أخطئ فيه، فأنا لا أعرف أي شيء آخر غير القرآن والقراءات، لم أدرس علمًا أو أسمع درسًا أو أحفظ شيئًا غير القرآن الكريم ومتونهِ في علوم القراءات والتجويد، وغير ذلك لا أعرف شيئًا آخر».

علاقتها بطلابها – رحمها الله – :

ولمَّا سئلت الشيخة أم السعد – رحمها الله تعالى- عن تلاميذتها وعلاقتها بهم، وهل تتذكرهم قالت – رحمها الله -: «أتذكر كلَّ واحدٍ منهم: هناك من أعطيته إجازة بقراءة واحدة. وهناك – وهم قليلون- من أخذوا إجازات بالقراءات العشر مختومة بختمي الخاص الذي أحتفظ به معي دائمًا، ولا أسلمه لأحد مهمَا كانت ثقتي فيه.

وهي تشير بهذا إلى أنها لا تختم الإجازة لأحدٍ ألا إذا قرأ عليها القرآن ووثقت بقراءته.

□ وتقول الشيخة أم السعد أيضًا: «بعضهم انشغل ولم يَعُد يزرني؛ لكن معظمهم يتصل بي أو يأتي لزيارتي والاطمئنان عليَّ بين الوقت والآخر».

وتذكر منهم بفخر عددًا من القراء والدعاة، وحفظة القرآن الكريم،

أحدهم نال المركز الثاني في المسابقة العالمية لحفظ القرآن الكريم التي تنظمها السعودية سنويًّا، وأشهرهم القارئ الطبيب «أحمد نعينع» الذي قرأ عليها وأخذ عنها إجازة.

□ يقول ابن رحال: «وممن أخذ عنها أيضًا شيخنا العلامة؛ مسند العصر/ **عبد الله** بن صالح بن محمد العبيد – حفظه **الله** تعالى–، ختم عليها ختمة كاملة للقراءات العشر من طريق الشاطبية والدرة بثغر الإسكندرية، كمَا ذكر ذلك في كتابه: «الإمتاع بذكر بعض كُتبِ السمَاع»».

وأيضًا قرأ عليها الشيخ القاريء/ هشام عبد الباري، وحصل منها على إجازة في أربع قراءات – كمَا أخبرني بذلك وفقه الله–، وفضيلة الشيخ المقريء/ عبد الحميد منصور –حفظه الله–، والداعية الربانية/ د: فاطمة الإسكندرانية – حفظها الله–، وكذا عدد من أساتذة وشيوخ معهد القراءات بالإسكندرية والذين لا يعطون إجازة في حفظ القرآن إلَّا ويضعون اسمها في أول السند المتصل إلى النبي ﷺ.

أسعد أيام أم السعد:

□ وتتابع أم السعد فتقول: «أسعد أيام أم السعد هو يوم: «الختمة» الذي تمنح فيه الطالب الإجازة، ورغم أنه مر عليها هذا اليوم أكثر من ثلاثمئةِ مرة، فإنها تحتفظ بصورة لكل إجازة، وكانت آخرها لسيدة في قراءة قالون عن نافع، وفي يوم: «الختمة» تقام وليمة، أو حفل يوزع فيه شاي وقهوة مع قطع الحلوى أو الكيك، ويقدِّم لها صاحب الختمة هدية: «جلابية، خاتم، حليةٌ ذهبية» كلٌّ حسب استطاعته.

أمَّا أجمل هدية فكانت رحلة حج وعمرة واستضافة سنة كاملة في

الأراضي الحجازية قدَّمها لها بعض تلامذتها، وأجملُ ما في هذه الهدية بَعْدَ الحج والعمرة: أنها راجعت حفظ القرآن الكريم، ومنحت إجازات في القراءات المختلفة لعشرات الحفاظ من كل البلاد الإسلامية: السعودية، باكستان، السودان، فلسطين، لبنان، تشاد، أفغانستان، بل عندما انتقلت إلى الكويت والمملكة العربية السعودية أنتشر تلاميذاتها أكثر وأكثر.

وأحبُّ إجازة منحتها الشيخة أم السعد – رحمها الله- إلى قلبها هي: لطالبة سعودية لم تتجاوزُ السابعة عشر من عمرها.

قصة الزواج:

□ وقالت الشيخة أم السعد – رحمها الله تعالى- عندما تقدم لخطبتي فضيلة الشيخ/ محمد فريد النعمَان – رحمه الله تعالى- رفضت لأن شيختي نفيسة أبو العلا – رحمها الله- كانت قد أخذت عليَّ موثقا ألا أتزوج قط، وأن أنذر نفسي للقرآن الكريم، وبعد مرور حاولي ستة أعوام كانت الشيخة نفيسة قد توفيت – رحمها الله تعالى-، وتقدم لخطبتي أحد الشيوخ الذين كانوا يختمون على يديها، وكاد والدها أن يوافق عليه، وهي أيضًا تبعًا لوالدها، وهذا الشيخ المتقدم لخطبتي أفشى السر وهو في إحدى المحلات قال: أنا بأتقدم لخطبة الشيخة أم السعد، فسمعه الشيخ محمد فريد النعمَان رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأسرع إلى والدها قائلًا أنا أولى بها من غيري لأنني ختمتُ عليها العشر، وكان الشيخ الذي أراد أن يخطبها لم يكن أتم القراءات العشر، وكانت مدة قراءة الشيخ/ النعمَان على الشيخ/ أم السعد – رحمهما الله- ست سنوات يقرأ عليها، وبالفعل

وافقت أم السعد، وتم الزواج والحمد لله، وكانت كثيرة الثناء على فضيلة الشيخ/ محمد فريد النعمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ خيرًا، والشيخ/ محمد فريد أيضًا كان بصيرًا بقلبهِ، وكان من أشهر القراء في الإسكندرية؛ في الإذاعة وغيرها.. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ نسيج وحدهِ في قراءته - رحمه الله تعالى -، وهو صاحب أول إجازة كانت تمنحها الشيخة أم السعد - رحمها الله تعالى -.

□ وتقول عن قصة زواجها من فضيلة الشيخ/ محمد فريد النعمان: «لم أستطع الوفاء بالوعد الذي قطعته لشيختي «نفيسة» بعدم الزواج.

وكان الشيخ/ محمد فريد يقرأ علي القرآن بالقراءات، كان مثلي ضريرًا وحفظ القرآن الكريم في سنّ مبكرة، درَّست له خمس سنوات كاملة وحين أكمل القراءات العشر، وأخذ إجازاتها، وبعدها طلب يدي للزواج فقبلت.

واستمر زواجهمَا أربعين سنة كاملة لم تنجب فيها أولادًا، ولكنها أنجبت تلاميذ حفاظًا وقراء كثُر.. فالحمد لله.

□ وتعلق قائلة: «الحمد لله، أشعر بأن الله تعالى يختار لي الخير دائمًا، ربما لو أنجبت لانشغلت بالأولاد عن القرآن وربمَا نسيته» اهـ.

□ يقول شيخنا/ المقدم -حفظه الله تعالى-: «نقول وإنها وإن حرمت الإنجاب والأولاد - رحمها الله تعالى- لكن فعلًا أولادها كثر، وهم هؤلاء الذين تلقوا عنها هذا العلم الشريف؛ لأن العلم رحم بين أهله؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقراءة أبي: ﴿وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ﴾؛ فهناك أبوة، وكما قال النبي ﷺ في الحديث: «**إنما أنا لكم مثل الوالدِ لولدِهِ**»، وفي لفظٍ: «**بمنزلة الوالدِ أعلمكم**»،

فالمعلم بمنزلة الأب، والإمام النووي – عليه سحائب الرحمة، وشآبيب المغفرة– وهو يترجم لبعض العلمَاء، يقول: هم أئمتنا وهم سلفنا كالوالدين لنا، وقال في ترجمة أبي العباس بن شريج: وهو أحد أجدادنا في سلسلة الفقه؛ فتعامل مع النسب العلمي كالنسب الصلبي.

❐ يقول الشاعر:

أُفَضِّل أستاذي على فضل والدي ... وإن الذي من والدي المجد الشرف

فهذا مربي الروح والروح جـوهرٌ ... وذاك مربي الجسم والجسم الصدف

فتلامذة الشيخة – رحمها الله– لا يزالون متوافرين ولله الحمد، ومن فاته علو الإسناد الذي كان يتمناه الإمام يحيى بن معين رَحِمَهُ اللهُ لمَّا سئل ما تشتهي يا إمام وهو في موتِهِ؟ قال: «بيتٌ خال، وإسنادٌ عال»، فمن فاته علو السند، وندم على أنه لم يلتحق بهذا النسب العلمي المبارك، فلا تزال توجد فرصة أولًا: بالنسبة لفضيلة الشيخ/ محمد عبد الحميد عبد الله – حفظه الله تعالى– وهو قرينها في نفس طبقتها في الإسناد، وأيضًا تلامذة الشيخة كثيرون ومن أشهرهم.. الشيخ/ عبد الحميد منصور –حفظه الله تعالى– وهو له دورٌ فعَّال في تعليم الإخوة القرآن، وأيضًا في الإسكندرية الأستاذة الدكتورة الربانية الداعية الكبيرة/ د: فاطمة الشيخ –حفظها الله تعالى– وهي تلميذة مباشرة للشيخة أم السعد – رحمها الله تعالى– ويمكن للأخوات أن يعوضن ما فاتهن بالتلقي عنها – وفقها الله تعالى–، وتلاميذاتها مشهورات وكثرٌ في الإسكندرية – ولله الحمد– ما يكاد أحد معه إسناد في الإسكندرية إلَّا ويكون عن طريق الشيخة أم السعد – رحمها الله تعالى–.

ختامها مسك:

✍ ونختم حديثنا هنا بـ: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»، وهذا جزءٌ يسير من سيرة هذه الشيخة الفاضلة، ونسأل الله ﷻ أن يشفع فيها بعد النبي الكريم ﷺ القرآن الكريم العظيم التي وهبته حياتها وخدمته أعظم خدمة، ونرجوا من الله أن يبقيَّ لها الذكر الحسن الذي يستحث الجميع على الدعاء لها بالمغفرة والرحمة، ونحن أيضًا نتمثل بقول الإمام عبد الله بن المبارك – رحمه الله تعالى-: «أحبُّ الصالحين ولستُ منهم وأرجوا أن أنال بهم شفاعة، وأبغض الطالحين وأزدريهم وإن كنا سواءً في البضاعة» (١) اهـ.

أنهار الخير الدَفَّاقة بالعطاء الزاخر:

في عصرنا نلمس العطاء السامي والحنان الغامر في نساء عاليات الهمم شرفت بهنّ بلادنا.

الحاجة كاميليا العربي رئيسة أحباب الله ومدارس الشمس المشرقة:

صورة مشرِّفة لرعاية اليتامى وحسن تربيتهم، ويد معطاء جوّادة ومدارس تبث الخير، وجمعية ترأسها أخت كريمة جوادة خيِّرة نبيلة جزاها الله خيرًا عن كفالتها الأيتام وجودها الزاخر.

نعم هي «أمجاد» تسير على أرضنا نحو المعالي و«الشمس المشرقة» لرعايتها لـ «أحباب الله» حفظ الله لها بنيها الكرام وهم إخواني في الله الذين أشرف بمعرفتهم ومحبتهم في الله.

---

(١) نص محاضرة الشيخ الدكتور محمد إسماعيل المقدم في رثاء شيخته وشيخه أهل بيته الشيخة أم السعد –رحمها الله- .



إن تَصْدُق الله يصدُقك:

□ قالت لي الحاجة كاميليا على التليفون: «السلام عليكم تبدأ قصّت منذ ١٧ عامًا تقريبًا،وكنت أعمل مقدِّمة برنامج أطفال بالتلفزيون، وقد مَنّ الله على بأداء فريضة الحج، وهناك شعرتُ بقربٍ من الله ﷻ، فعُدْتُ وقد قرّرت ارتـداء الحجـاب لَّما علمتُ أنه فرض، وعندما توجّهت لأداء برنامجي فوجئت بقرار منعي من الظهور، وكان عليَّ أن أختار بين عملي وحجابي فاخترتُ الله ودعوته أن يأجرني في مصيبتي ويخلفَني خيرًا منها. فمنَّ الله عليّ مرّة أخرى بدار «أحباب الله» الذي كان فيه العِوَض عن أطفال التليفزيون، بدأت بـ ٣ أطفال حتى وصل عددهم إلى ٣٠٠ طفل يتيم إلى جانب حوالي ١٥٠ من القائمين بالعمل عليهم، وفي يومٍ فوجئت بمن يخبرني بأن الدار ليس بها رغيف واحد، وليس عندنا رصيد بالبنك وأن عليّ أن أتصرَّف، وبدأت بالأخذ بالأسباب، فبدأت أبحث عمَّن يتبرَّاع لـ «أحباب الله» الأيتام، ولكني لم أجد أحدًا ممن اعتدتُ أن ألجأ إليهم في مثل هذه المواقف، وتذكَّرت أني لجأت للأسباب قبل المسبِّب، ولاح بخاطري الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًا..**» فذهبت إلى غرفتي، وشرعت في الصلاة لله، وبعد كل ركعتيْن أشعرُ بأن الهمَّ سوف يزول، وأن الفرج لا بُدَّ أن يأتي، وأنَّهُ ما ابتلاني إلَّا ليعافيني وإنما هو مجرّد اختبار، وظللت أبكي وأدعو ربي وأناجيه أن يرفع عني هذا الهمّ، وظلّت الصلاة مصحوبة بالبكاء حتى شعرت وكأن الهمَّ قد زال، ولاح الفجر وصلَّيتُ، ثم ذهبت إلى مقرِّ الجمعية بالمعادي، ودخلت مكتبي، وما هي إلَّا لحظات حتى دقّ الباب شخص لا أعرفه، ودخل المكتب وبادرني بسؤال: ماذا تُريدين، وبكيت وقلت: والله إن أعطيتني جنيهًا سوف

أشتري به خبزًا للأطفال، فقال: أهذه الحالة وصلتُم؟!، ثم خرج وعاد بعد دقائق قليلة وفي يده كيس بلاستيك أسود وضعه أمامي على المكتب وقال: «٣٠ ألف جنيه» يمَشُّوك شويّة.. طبعًا انفجرت في البكاء وقمت من على مكتبي وذهبت لمن قالت لي بالأمس: ليس لدينا رغيف خبز واحد بالدّار،وقلتُ لها: لا تقولي مرة أخرى ليس عندنا فما دام الله موجود فلن يُضَيِّعنا أبدًا، وعُدتُ مرة ثانية إلى الشخص وبيدي دفتر التبرّعات، واستخرجت الإيصال وأنا أقول له أكتب المبلغ باسم من؟ قال: فاعل خير، وانصرف، ومن يومها – والحمد لله رب العالمين – ما سألتُ الله مرّة شيئًا على قدْري إلّا وأعطاني على قدره».

الحاجة منى صلاح رائدة «منابر النور» ودورها النبيل في العمل الاجتماعي:

أسأل الله أن يجلسها على «منابر النور» في جنته ويهبها النظر إلى وجهه تصب الخير صَبًّا صبًّا على الفقراء والمساكين والمحتاجين من المسلمين لا ترد سائلًا، وتشرف على تعليم نساء المسلمين القرآن الكريم فبُورك جهدها، ونَبُل قصدها.. حفظ الله لها بنيها وجعلهم منابر نور في طريق الدعوة إلى الله.

تيَّار الفرات.. أمي الثانية.. الحاجة أم وليد.. الحاجة ثريا:

بوركت من صالحة قانتة عابدة قوّامة، معطاءة، خيِّرة، دَيِّنة صيِّنة.. نهر خير يفيض ويفيض ويفيض..تحب معالي الأمور وتجعل همها كل همها في الآخرة.

في ليل رمضان تقوم الليل متهجدة في ليله باثنين وعشرين جزءًا من القرآن وسنها سبع وستون سنة!!! مدّ الله في عمرها.

والله ليس لعطائها مثيل.. وتعجز الكلمات عن وصف همتها وجودها

بارك الله لها في أولادها وأحفادها وحفظهم بحفظه الجميل، ورزقها جوار النبي ﷺ في أعلى عليين.. هي أمي الثانية التي جادت عليّ بكل خير وعند الله وحده جزاؤها.

أمي الحبيبة الغالية سميرة بنت عبد الحليم العفّانية:

كانت رحمها الله قد بلغت من الطاعة لزوجها أبي رَحِمَهُ اللهُ الغاية القصوى، وتفانت في خدمة أبي وأولادها، ضحّت براحتها من أجل راحة من حولها.

وكانت كثيرة الذكر كريمة محسنة لليتامى والفقراء والمساكين كل معاشها من راتب أبي كانت تنفقه في رواتب شهرية على أرامل وفقراء، لا تحبس شيئًا عن المحتاجين وكانت كثيرة الصلاة، وحينَما أصيبت بجلطة ونُقِلت إلى مستشفى التأمين الصحي ببني سويف ظهرت منها الأعاجيب فقد كان ينتابها في أحايين كثيرة فقدان الوعي وغيبوبة كاملة عن الوعي فإذا سمعت صوت الأذان ردّدته – إِي والله- وتأمر أخي الدكتور سعد قائلة: أريد أن أتوضأ حتى لا تفوتني صَلاة الفجر.. أَيقِظ البناتِ للصلاة.. كل هذا وهي في الغيبوبة وبناتُ أخي في قريتنا بني عفان بعيدًا عنها.. مثلَما كانت توقظهن لصلاة الفجر.

ولَمَّا أفاقت لحظات من غيبوبتها أوصتني ببناء مستشفى ومسجد على قطعة أرض تملكها.

وقبل موتها مباشرة دخلت في الغيبوبة التي ما أفاقت منها حتى موتها رحمها الله، وعزّ عليّ ما تلاقي فقلت بصوت خفيّ: اللهم لا تُحْوِجها إلى زوجاتنا أو أحد من خلقك.. فإذا بها تقول، وهي غائبة عن الوعي تمامًا: «اللَّهم إن رحمتك إياي لا تنقصك فهب لي ما لا ينقصك، اللَّهم إن مغفرتك إِيّاي لا تعجزك فهب لي ما لا يُعجزك.. اللَّهم لا تُحْوِجْني إلى

أحدٍ من خلقك ورددت قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ].

ثم رددت خواتيم سورة البقرة: ﴿.. رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

وكان هذا آخر كلمات قالتها وغادرت به دنيانا.. أسكنها الله أعالي الفردوس هي وأبي.. وأورثهما مرافقة الرسول الكريم ﷺ.